المجلة الجزائرية للدراسات الإنسانية: ISSN : 2716-7984
المجلد 01 ، العــدد: 02 ، ديسمبر 2019

سيرة العدواني الشعبيّة: الذاكرة العائليّة وبناء المكانة الاجتماعيّة في البلاد التونسيّة خلال القرن 17. مثال عائلة أولاد الهادف

Al Adwani's Popular Biography: The Family Memory and the Construction of the Social Status in the Tunisian Country Duringthe 17th Century: the Case of Awlad Al Hadef Family

د.محمد البشير الرزاقي[1]

جامعة تونس

ملخص: حاولنا من خلال هذا المقال أن نتبيّن العلاقة التشابكيّة بين فعل الحكي، خاصّة وأنّ سيرة العدواني هي في الأصل رواية شفويّة ثمّ دوّنت فيما بعد، وثقل الذاكرة وعلاقة ذلك ببناء المكانة الاجتماعيّة للأفراد والعائلات في البلاد التونسيّة خلال القرن 17. وقد تبيّن لنا خلال البحث الدور المهمّ للذاكرة في عمليّة حياكة المكانة الاجتماعيّة للأفراد والعائلات. وقد ارتكزت عائلة الهادف على ثروة ماديّة وشبكة علاقات واسعة ورأس مال رمزي ترسّخ وتجذّر أكثر من خلال توظيف الذاكرة عند ممارسة السرد. كما تشابك فعل السرد في تاريخ العدواني مع السير والقصص القرآني من أجل بناء المكانة الاجتماعيّة للفرد وللعائلة، وقد كانت هذه الممارسة تعتمد غالبا على التلميح لا على التصريح.

الكلمات المفاتيح: العدواني، أولاد الهادف، السّرد، الذاكرة، بناء المكانة الاجتماعيّة.

Abstract:We have tried in this article to discern the interrelationship between the act of the narration - especially since the biography of the Adwani is originally an oral narrative and then has been written later, and the weight of memory and its relation to the social status of individuals and families in Tunisia during the 17th century. It has been evident for us the important role of the memory in the process of weaving the

[1]-اسم ولقب المرسل: د. محمد البشير الرزاقي ، جامعة تونس،

البريدالالكتروني:**rezgui.medd@gmail.com**

social status of individuals and families. The family of Awlad Alhadef has counted on material wealth, a vast network of connections and a symbolic capital that has been established and rooted more by the use of memory in narrative. The act of narration in the history of Al Adwani is intertwined with the narration and the Quranic narratives to build the social status of the individual and the family. This practice has been often founded on the allusion instead of explicitation.
Keywords: Adwani, Awled Al Hadef, Narrative, Memory, Construction of social status.

مقدّمة:

تعتبر "الذاكرة مادة أوّليّة للتاريخ"[1] وللممارسة التراثيّة[2]، ومن المهم منهجيا التفريق بين "الذاكرة التاريخية الجماعية والمعرفة التاريخية. فالذاكرة الجماعية عفوية وأسطورية بطبيعتها، بل هي مخزن نفسي جماعي يُنقص من الأخبار والصور أحيانا أو يُضيف إليها أحيانا أخرى تزيينا أو تشويها. والزينة والتشويه، على غرار التحسين أو التقبيح، كلها رتوش تنشأ عبر الزمن وبفعل وطأة الحادث الراهن"[3].وقد تشابكت في هذا الإطار الذاكرة في سرديّات السير الشعبيّة مع الصدق والحقيقة، وأيضا مع الانتقاء والتحريف والتبرير في رهانات الفاعلين الاجتماعيّين[4]. ومن هنا سوف ندرس في عملنا علاقة الذاكرة ببناء المكانة الاجتماعيّة لعائلة أولاد الهادف خلال القرن 17 بالبلاد التونسيّة من خلال سير العدواني.

فكيف وظّفت الذاكرة من خلال سرديّات مختلفة في بناء المكانة الاجتماعيّة للعائلة؟ وكيف استخدمت الذاكرة لترسيخ وجود عائلة أولاد الهادف سواء على مستوى تمثّلات الفاعلين الاجتماعيّين أو مستوى بناء الشبكة الاجتماعيّة؟

---

[1] عبد العزيز الطاهري، "الشاهد والمؤرخ في المغرب: صراع أم تكامل؟"، **أسطور**، العدد 6، جوان 2017، صص. 100- 117، ص. 112

[2] عبد الرحمان أيّوب، "الذاكرة والتراث الثقافي اللامادي"، **الثقافة الشعبيّة**، البحرين، العدد 43، خريف 2018، ص.14-21

[3] وجيه كوثراني، "التاريخ والذاكرة والكتابة التاريخية. دراسة نماذج: سايكس بيكو، الخلافة، ذاكرات طوائف لبنان"، **أسطور**، العدد 4، جوان 2016، صص.13- 24، ص.22

[4] محمود رمضان الجبور، "سيرة بني هلال: بين الشفاهيّة والتدوين"،**الثقافة الشعبية**، البحرين، العدد 43، خريف 2018، صص.40-47

1. الذاكرة والسرد والسير الشعبيّة وبناء المكانة الاجتماعيّة:

الإطار النظري: ارتبط توظيف الذاكرة أساسا برهانات الفاعلين الاجتماعيّين السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة[1]، كما ارتبط فعل التذكّر بالأزمة[2]. من هنا نطرح إشكالية مهمة عن دراسة علاقة العائلة بالذاكرة، هل تبني العائلة ذاكرتها بمعزل عن المتخيّلات الاجتماعية التي تحيط بها؟ أو تتأثّر بكلّ ذلك؟ وهل نستطيع عزل الذاكرة عن المتخيّل؟ لقد بيّن تشارلز تايلر في كتابه حول مسألة "المتخيّلات الاجتماعية الحديثة" أنّ "المتخيّل الاجتماعي هو ذلك الفهم المشترك الذي يجعل الممارسات الاجتماعية ممكنة، إضافة إلى الإحساس العام المشترك بالمشروعيّة"[3].

من هنا نطرح إشكاليّة أخرى أثارها بيار بورديو في كتابه "عن الدولة"، حيث أبرز أن الدولة تفرض الطاعة من خلال ممارسة مجموعة من "طقوس التأسيس العظمى" مثل إعطاء

---

[1] أنظر العدد الخاص من مجلّة "إنسانيّات" الصادرة عن مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية و الثقافية بالجزائر (CRASC) بعنوان "ذاكرة وتاريخ"، حيث يتضمّن العدد عددا مهمّا من المقالات التي تبرز العلاقة الوشيجة بين الذاكرة والرهانات السياسيّة أو الحربيّة وب"الأساطير المؤسّسة" وبناء الهويّة":

- **Fouad** Soufi, « Histoire et mémoire: l'historiographie coloniale », *Insaniyat / إنسانيات*, N 3, 1998, p.53-69.
- Malika El Korso, « La mémoire des militantes de la Guerre de libération nationale », *Insaniyat / إنسانيات*, N3, 1998, p.25-51.
- صادق بن قادة، «الذاكرة المكتوبة والتاريخ: أضواء جديدة حول شخصية مسلم بن عبد القادر الوهراني أديب ومؤرخ بايات وهران (القرن 13هـ/19م)» / **Insaniyat** ,**إنسانيات**، العدد 3، 1998، ص.35- 45
- لطفي عيسى، **"ذاكرة المخزن وتحدّي التاريخ المقارن"، الكرّاسات التونسية**، عدد 212-213، 2011، صص.45-64

[2] **محمد** غالم، «ظاهرة الزلزال في الأسطوغرافيا الجزائرية التقليدية (بين الذاكرة والتاريخ) » *Insaniyat* , */إنسانيات*، العدد 3، 1998، ص.47- 67

[3] تشارلز تايلر، **المتخيّلات الاجتماعية الحديثة**، ترجمة: الحارث النبهان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015، ص.35

الأوسمة والألقاب، وهي في الحقيقة تقوم بعملية تصنيف بامتياز وإعادة ترتيب الأماكن الاجتماعية، والدولة تحاول أن " تفرض ما تبنيه من هذه المقولات على الفاعلين"، ودور التصنيفات هنا أن "تُوفّق وتُنسّق وتُنَاغم بين الفاعلين"[1]. أمّا بيندكت أندرسون في كتابه عن "الجماعات المتخيّلة" فقد بيّن أنّ المدن والجماعات ترتكز أساسا على موروث الذاكرة للتأسيس أو على الأقل للمحافظة على البقاء، ابتداء من "أسماء الأماكن" مرورا ب"الرّابطة العائليّة" وصولا إلى تأسيس المدن والدول، وعمليّة التأسيس تعتمد أساسا على "التاريخ المحبوك بطرائق محدّدة"، ومن هنا تبرز الذاكرة لتشكّل هذا التاريخ[2].

كما بيّن فرديناند تونيز Ferdinand Tönnies أن العلاقات الإنسانية تتدرج من الجزئي إلى الكلّي بداية من العلاقة "بين الأمّ وابنها" وصولا إلى "الجماعة المرتبطة بروابط الدمّ.... بشكل أكثر تخصّصا إلى الجماعة المكانيّة"، والجماعة تحاول أن توفّر لنفسها "وجود فيزيائي" أي "الجماعة المكانية"، وبالمقابل "تؤدّي الجماعة الروحيّة دور الرّابط الوثيق على مستوى الفكر الواعي".، واستنتج تونيز أنّ "ما يشكّل الجماعة البشريّة في أرقى أشكالها" هو الوجود الفيزيائي للإنسان نفسه، والأرض و"الآلهة" أو المقدّس. وهذه الخطاطة التي رسمها تونيز تترسّخ أكثر مع وجود "المنزل" الخاص و"الجوار"[3].

تتكوّن عمليّة بناء المكانة الاجتماعيّة المستندة إلى فعل التذكّر من مجموعة من الدوائر المتداخلة، وتبدأ من دائرة بناء المكانة الاجتماعيّة للفرد، مرورا، بالعائلة[4] وصولا إلى بناء

---

[1] بيار بورديو، **عن الدولة. دروس في الكوليج دو فرانس**، ترجمة: نصير مروة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2016، ص.292

[2] بندكت أندرسن، **الجماعات المتخيّلة. تأمّلات في أصل القوميّة وانتشارها**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ترجمة: ثئر ديب، 2014، ص. 283- 308

[3] فرديناند تونيز، **تونيز. الجماعة والمجتمع المدني**، ترجمة: نائل حريري، تحرير: جوزيه هاريس، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017، ص.91- 100

[4] Abdelhamid Hénia, « Mémoires d'origine et gestion communautaire de l'intégration en Tunisie (17e-19e siècles) », In, *EtnoAntropologia*, Vol 3, N° 1, 2015 : (http://www.rivisteclueb.it/riviste/index.php/etnoantropologia/article/view/181/275)

المكانة الاجتماعيّة للجماعة سواء دولة أو قبيلة أو طبقة. وتلعب الذاكرة في هذا الإطار لبّ الرّحى المنتج للسرد المشرعن لتواجد هذه الدوائر. والفاعل الاجتماعي يستفزّ خاصيات الذاكرة بما هي انتقائيّة وتحريفيّة وتصنيفيّة لكي ينسج رهاناته الخاصّة.

كما تُعتبر الذّاكرة من أهمّ آليّات تشكيل مكانة الأفراد والعائلات، خاصّة وأنّ "السيطرة على الذاكرة والنسيان هي من أكبر اهتمامات الطبقات والمجموعات والأفراد الذين هيمنوا أو يهيمنون على المجتمعات التاريخية"[1].كما تُعدّ من أهمّ الاستراتيجيّات المختلفة التي تعتمدها العائلة لتثبيت وجودها وتعزيز مكانتها في محيطها، فنجد بعض العائلات تراهن على موروثها ومساهماتها العلميّة للحفاظ على مكانتها وترسيخها مثل عائلة "أبو غزالة" في مدينة نابلس الفلسطينيّة آخر الفترة العثمانيّة حيث ثبّتت مكانتها الاجتماعية عن طريق مهارة ممارسة مهنة الطبّ لمدّة طويلة. وهذه الوجاهة العلميّة أسّست لمكانة اجتماعيّة لاسم العائلة نفسه، وهذا ما ساهم في بناء ذاكرة عائليّة دعّمت اندماج العائلة ضمن نخبة حضريّة محليّة.[2]

بالمقابل نجد أنّ عائلة الخالدي الفلسطينيّة نسجت حولها مخيّلة سرديّة ومجتمعيّة كاملة منذ القرن السابع عشر مستندة إلى مهارة عائليّة في ممارسة الفقه الإسلامي. هذا الرأسمال الرمزي مكّن العائلة من السيطرة على جزء كبير من محاكم الشّرع، ومن الوصول إلى مراكز الحكم في إسطنبول. لذا نستنتج أنّ الرأسمال الرمزي يسند ويدعّم ويرسّخ الرأسمال المادي[3].

---

[1] جاك لوغوف، **التاريخ والذاكرة**، ترجمة: جمال شحيّد، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017، ص.105.

[2] **Philippe** Bourmaud, « Des notables locaux et nationaux : les familles AbūĠazālah et Khalidi et la profession médicale, de l'époque ottomane au mandat britannique en Palestine », *Cahiers de la Méditerranée*, 82 | 2011, pp.267-296, p.17

[3] Ibid, p.20.

أنظر مثلا بالنسبة إلى البلاد التونسيّة:

- Abdelhamid Hénia, « Origine et évolution d'un patrimoine familiale tunisien (17e- 19e siècle) », *IBLA*, Tunis, N 155, 1985, pp.3-17, p.15-16 (Deuxième partie).

من خلال دراسة أسس بناء المكانة الاجتماعيّة للعائلة في المغارب من خلال علاقة الذاكرة، خاصّة الذاكرة المتشابكة مع السير الشعبيّة، تبيّن لنا الدور المهمّ لعامل شبكة النفوذ في بناء هذه المكانة. ويعتبر بلاط السلطة الحسينية لبّ الرّحى في إنتاج شبكات النفوذ[1]. كما أنّ عجز الدولة عن تحييز مجالها بمفردها ساعد العائلات المدينية أو المحلية الريفية على الدخول إلى المنظومة الحاكمة للمخزن. فقد أشار مصطفى التليلي إلى أنه منذ القرن السادس عشر بدأت تبرز ظاهرة "عائلات الأعيان التي تحتكر النفوذ المحلي"[2].

ونلاحظ هنا أنّ عمليّة اكتساب العائلة لمكانتها عمليّة براغماتيّة تستند على نجاعة الفعل والحركة مع المراهنة على فعل التذكّر لحظة بناء هذا النفوذ. فقد بيّن سامي البرقاوي هاجس إثبات الأصل الذي صاحب الأسطوغرافيا التونسيّة والمغربيّة خلال الفترة الحديثة. فالإخباريون مثل ابن أبي دينار أو محمد بن خوجة أو السرّاج هم رجال عصرهم ومثقّفوه، ومن منطلق أنّ المؤرّخ يُعدّ من أهمّ بُناة الدولة، حاولوا تشريع ظرفيّات سياسيّة واجتماعيّة من خلال إثبات المكانة الاجتماعيّة وإنشاء تصنيفات وتراتبيّة جماعيّة كوسيلة لتنظيم المجتمع[3]. ومن هنا تبرز الذاكرة في فعل التأليف التاريخي خاصّة عند رسم شجرة أصول العائلة الحاكمة وتشريع فعل الحكم نفسه.

أما عبد الواحد المكني فقد بيّن الدور المهمّ الذي تلعبه سرديّات الذاكرة في تأسيس العائلات، فالذاكرة حافظت على مدوّنة ألقاب عائلية مهمّة في مدينة صفاقس، والأهم حافظت على أسماء المهن التي زاولتها كل عائلة وهل أن العائلة "وافدة" أو من "المولودين

[1] سلوى هويدي،**أعوان الدولة بالإيالة التونسية: الأفراد، المجموعات، شبكات العلاقات، 1735–1814**، كليّة العلوم الانسانيّة والاجتماعيّة بتونس، 2014 ص.15

[2] مصطفى التليلي، "احتكار النفوذ المحلي وآليات المحافظة عليه من خلال مسيرة عائلة السماوي بمدينة قفصة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر"، ضمن: **مسار مؤرخ وتجربة تأريخية. أعمال مهداة إلى محمد الهادي الشريف**، مركز النشر الجامعي/ دراسات مغاربية، 2008، ص.95- 104

[3] Sami BARGAOUI, « La question des origines dans les historiographies tunisienne et marocaine de l'époque moderne », in, *Savoirs historiques au Maghreb. Constructions et usages*, Coordination: Sami Bargaoui- Hssan Remaoun, CRASC, CERES, 2066, pp.49- 59, p. 59

بالمكان" وهل هم من سكان "الغابة" أو "الربضين" أو "المدينة"، وهل أن العائلة تونسية أو حنفية أو زواوة أو عبيد أو صبايحية أو تحت حماية قنصلية[1]. فذاكرة الاسم العائلي لعبت دورا مهمّا في "معركة التفاخر بالألقاب ومنافسة الشرف والتقادم والحسب والنسب لا تحسمها الوثائق فقط بل هي تمرّ أولا وقبل كلّ شيء عبر الذاكرة والخطاب الذي يتمّ إخراجه اجتماعيا، والذي يقع تداوله من جيل إلجيل"[2]. كما أنّ الذاكرة من خلال نموذج الاسم العائلي تقوم بالتصنيف التحقيري أو التفضيلي، وتحاول أن تُذكّر دائما بتاريخ العائلة لتضعها في مكانها ضمن التراتبيّة المجتمعيّة، حيث أنّ الذّاكرة تسهّل على الفاعلين الاجتماعيّين عمليّة المراقبة والتعرّف على الأفراد والجماعات للمحافظة على البنية المجتمعيّة الملائمة لرهانات الفاعلين[3].

2. بنية الذاكرة ورموزها من خلال الحفر في كلمات سيرة العدواني: عائلة أولاد الهادف نموذجا:

نشأ العدواني في ظرفيّة صعبة عايشتها البلاد التونسيّة،فقد شهدت البلاد خلال القرن 17 صراعات متعدّدة بين مختلف الفاعلين الاجتماعيين من فقهاء ومفتين وأولياء وسلطة عثمانية وأعيان[4]، خاصّة في ضلّ حضور الرهانات السياسية والاجتماعية للفاعلين

[1] عبد الواحد المكني، **الأصل والفصل في تاريخ عائلات صفاقس**، دار محمد علي للنشر، تونس/كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، مخبر البحوث والدراسات المقارنة والمتداخلة، 2016، 39- 52.

[2] نفس المرجع، ص. 52.

[3] بالنسبة لعلاقة المصاهرة بتأسيس ذاكرة ذات مكانة للبيوتات والعائلات أنظر:

- Leila Temime Blili, *Sous le toit de l'Empire : La Régence de Tunis (1535-1666). Genèse d'une province ottomane au Maghreb*, Editions Script : Collection Histoire, Tunis, Tome 1, p.289-330

- *Hasab wa nasab, Alliance et Patrimoine en Tunisie*, Sous la direction de : Sophie Ferchiou, Paris : Editions du CNRS, 1992

[4] المنتصر بن المرابط بن أبي لحية القفصي، **نور الأرماش في مناقب القشاش**، دراسة وتحقيق: لطفي عيسى/ حسين بوجرّة، المكتبة العتيقة، تونس، 1998، ص.64-74

- Taoufik Bachrouch, *Formation sociale barbaresque et pouvoir à Tunis au 17e siècle*, Faculté des lettres et sciences humaines de Tunis, 1977, p.211-214

الاجتماعيين، بين سلطة تركيّة وبداية الاستقلال عن المركز الإمبراطوري، ودولة عثمانية متوجّسة تجاه نوايا حكّام تونس، وأهل البلاد المحليّين[1]. وهذا ما يبرز لنا في "تاريخ العدواني" من خلال تعدّد قصص المعارك والحروب[2]، حيث نسجّل تشابكا بين أحداث الكتاب و"الصراع بين السلطة والخارجين عليها، بين المدينة والبادية، بين السياسيّين والمرابطين"[3]. وأمّا عائلة أولاد الهادف فقد كانت عائلة نافذةفي منطقة توزر خلال زمن العدواني[4]، وكانت جزءا من المشهد الأعياني ضمن هذه المنطقة[5]، خاصّة بعد تحالفهم مع الحكّام الأتراك[6].

[1]Leila Temime Blili, *Sous le toit de l'Empire : La Régence de Tunis (1535-1666). Genèse d'une province ottomane au Maghreb*, Editions Script : Collection Histoire, Tunis, Tome 1, p.344- 346

[2]محمد بن محمد بن عمر العدواني، **تاريخ العدواني**، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، 1996، ص. 45

[3]نفس المصدر، ص.44

[4]نورة الوسلاتي، "المرويّة القبليّة وتمثّلات مجال البداوة: طرود في كتاب العدواني"، ضمن:
Perception de l'espace au Maghreb et ailleurs, Travaux réunis et présentés par : Lotfi Aissa, F.S.H.S. Tunis, 2011, pp.193-222, p.220

- محمد بن محمد بن عمر العدواني، **تاريخ العدواني**، مصدر مذكور، ص.19

[5] مصطفى التليلي، **قفصة والقرى الواحية المجاورة: حول الحياة الجماعوية من بداية القرن 18 إلى 1881**، نشر وتوزيع جمعية صيانة مدينة قفصة، 2009، ص.436

[6]Abdelhamid Hénia, Introduction, In, Etre notable au Maghreb: Dynamique des configurations notabiliaires, Sous la direction de : Abdelhamid Hénia, IRMC- Maisonnenve et Larose, Paris, 2006, pp.11-37, p.18-19

- Abdelhamid Hénia, « Mémoire d'origine d'un lignage dominant le pouvoir local à Tozeur (XVIe - milieu XIXe s.) », in, *Mélanges offerts à Mohamed Talbi à l'occasion de son 70e anniversaire*, Tunis : Pub. De la Faculté des Lettres de la Manouba, 1993, pp. 125-148

عند دراستنا لمفهوم الذاكرة وعلاقتها بالعائلة فإنّنا نجد أمامنا "ذواكر جماعيّة" و"ذواكر فرديّة"[1]. كما أنّ فعل التذكّر يرتكز على مجموعة من الرهانات التي يُعوّل عليها الفاعلون الاجتماعيّون سواء من"أجل السلطة والحياة" أو من أجل "البقاء والارتقاء"[2]. وتلعب الذاكرة دور "العنصر الأساس لما أصبحنا نسمّيه الهويّة الفرديّة أو الجمعيّة"، وهذا من دون إغفال الفعل التصنيفي الذي تمارسه الذاكرة خاصة عندما تحضر "ذاكرة جمعيّة مرتبطة جدّا بطبقة اجتماعيّة مهيمنة"[3].

نسجّل من خلال كتاب العدواني ومن زاوية علم الأسماء Onomastique أنّ الذاكرة وظّفت لنسج مكانة لائقة لشخصية الهادف، فابنه اسمه "بلقاسم"[4]، ويُعدّ هذا الاسم من الأسماء التي تُطلق على الرسول إلى جانب اسم "محمد". والاسم مرتبط مباشرة بالمكانة الاجتماعية وتصنيفات الفاعلين الاجتماعيين. وهذا ما أكّدته إليزابيث غرانغو Isabelle Grangaud في أحد أعمالها حيث بيّنت أن استخدام لفظ"سي" أو "سيّد" مرتبط بالوجاهة الاجتماعيّة للفرد في قسنطينة خلال الفترة الحديثة[5].

ومن أهمّ ركائز ترسيخ المكانة المجتمعيّة لعائلة أولاد الهادف من خلال السّرد الحرص الدّائم على التذكير بأنّه الهادف وهو الذي سُمّيت العائلة باسمه "خرّجوه قومه من وسطهم"[6]، ولا يمكن أن نُغفل هنا الموروث الديني الذي يطبع البُنية الذهنيّة للفاعلين

---

[1] جاك لوغوف، **التّاريخ والذاكرة**، ترجمة: جمال شحيّد، المركز للأبحاث ودراسة السياسات، 2017، ص.101

[2] نفس المرجع، ص. 166

- لطفي عيسى، **أخبار المناقب في المعجزة والكرامة والتاريخ**، سراس للنشر. تونس، 1993، ص.10-89

[3] جاك لوغوف، **التّاريخ والذاكرة**، مرجع مذكور، ص.166- 167

[4] محمد بن محمد بن عمر العدواني، **تاريخ العدواني**، مصدر مذكور، ص. 216

[5] Isabelle Grangaud, « Le titre de Sayyid ou Sî dans la documentation constantinoise d'époque moderne : un marqueur identitaire en évolution », *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée* [En ligne], 127 | juillet 2010

[6] محمد بن محمد بن عمر العدواني، **تاريخ العدواني**، مصدر مذكور، ص. 203

الاجتماعيّين حيث تمّ مثلا تهجير الرّسول من مكّة في بداية الدعوة الإسلامية. إذن فعل النبذ والتهجير لحظة مكوّنة وأساسيّة في بناء الشخصيّة من خلال ذهنيّة المجتمع الإسلامي. كما نلاحظ أنّ السرد الشعبي يمرّ بطقوس العبور وتتكوّن من ثلاث مراحل "وهذه المراحل هي مرحلة الابتعاد عن الأهل، ومرحلة النّضج، ثمّ مرحلة العودة"[1]. وهذه المراحل الثلاثة تبرز لنا بوضح في قصّة الهادف.

ومن الأوصاف التي أطلقت على الهادف نجد "يا مليح اللسان، يا نقيّ البشرة...رجل أذيبْ ليّن القول، واسع البال"[2]. وهو أيضا "رجل حسن طيّب الرائحة نقيّ البشرة حسن الخلق وفراسة وقومه، وأظنّه سيّد قومه"[3]. والهادف يمتّع بـ"الرياضة وحلاوة المنطق ورضا النفس وسلامة لسانه من الحقد والحسد، وجُود وكرم"[4]، و"حكيم زمانه"[5]. وخاطبه الأمير الأشرف بكونه "المرأة ما ولدت غيرك"[6]. والهادف لما يصف نفسه يقول "أنا رجل صاحب تدبير للملوك ولي رأي كامل وعقل مليح"[7]، أو "أنا رجل قاصد الملوك ونصلح لتدبيرهم"[8]. ومصطلح "نصلح" و"صالح" لديهم هالة ولائيّة واضحة، فحسب نلّلي سلامة عامري فإنّ معنى كلمة "صالح" خلال الفترة الحفصيّة كان مرادفا "لصوفي أو وليّ"[9].

---

[1] هشام بنشاوي، "تجلّيات البطولة في الأدب الشعبي"، **الثقافة الشعبيّة**، العدد 36، 2017، صص. 50- 59، ص. 56

[2] محمد بن محمد بن عمر العدواني، **تاريخ العدواني**، مصدر مذكور، ص.202

[3] نفس المصدر، ص. 203

[4] نفس المصدر، ص. 204

[5] نفس المصدر، ص. 217

[6] نفس المصدر، ص. 221

[7] نفس المصدر، ص. 208

[8] نف المصدر، ص. 216

[9] نلّلي سلامة العامري، **الوَلاية والمجتمع. مساهمة في التاريخ الاجتماعي والديني في لإفريقيّة في العهد الحفصي**، دار الفرابي/كليّة الآداب والفنون والانسانيّات بمنّوبة، تونس، الطبعة الثانية، 2006، ص. 498 وما بعدها

ورجاحة عقل الهادف وحكمته حسب الرواية جعلته في أحيان كثيرة قريبا من الحكّام يستشيرونه ويعترفون بفضله حيث أنه "صاحب تدبير"[1]. وفي موضع آخر يتحدث عن نفسه كالتالي: "خرجت من وطني لأجل الحرمة وعلوّ المنزلة، والله لا رضيت بالذلّ، وأنا كنت عالي ما فوقي أحد"[2]. كما يقول على نفسه "أنا رجل مليح الخلق باه المنطق"[3].

ومن أسس بناء مكانة الهادف هو تصويره في شكل الفارس الذي لا يُهزم، ويظلّ يُقاتل وحده على آخر رمق، "انجرح في فخذه وماتت فرسه وصار يُقاتل وحده"[4]. يحتلّ محور الجسد وقوّته وتمكّنه خلال الفترة المدروسة مكانة متميّزة في ذهنيّة الفاعلين الاجتماعيّين وتمثّلهم للكون سواء بالنسبة للأولياء الصالحين[5]، أو بالنسبة لرجال التصوّف[6]، أو على مستوى علاقة الجسد بالممارسات اليومية مثل الرغبة أو الرقص[7]. والهدف هنا هو تصوير الهادف في شكل الشخصيّة العجيبة، حيث أنّ "للعجيب دور رئيس في بناء الشخصيّة العجيبة فهو يُعيد تشكيلها ويُعطيها بعدا مختلفا عن الشخصيّة الطبيعيّة أو العاديّة في العمل السردي" وهذا ما يبرز مثلا في سيرة سيف ابن ذي يزن

[1] محمد بن محمد بن عمر العدواني، **تاريخ العدواني**، مصدر مذكور، ص. 211

[2] نفس المصدر، ص. 228

[3] نفس المصدر، ص. 234

[4] نفس المصدر، ص.201

[5] Nelly Amri, « Le corps du saint dans l'hagiographie du Maghreb médiéval », *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée* [En ligne], 113-114 | novembre 2006, mis en ligne le 10 novembre 2006, consulté le 02 décembre 2017

[6] Eve Feuillebois-Pierunek, « La maîtrise du corps d'après les manuels de soufisme (10e-14e siècles) », *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée* [En ligne], 113-114 | novembre 2006, mis en ligne le 10 novembre 2006, consulté le 02 décembre 2017(https://journals.openedition.org/remmm/2969)

[7] Référence électronique Fabio Ambrosio, « Écrire le corps dansant au e siècle : Ismâʿîl RusûkhîAnqaravî », *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée* [En ligne], 113-114 | novembre 2006, mis en ligne le 10 novembre 2006, consulté le 02décembre2017(https://journals.openedition.org/remmm/2978)

مثلا[1]، حيث دائما ما نجد في الأدب الشعبي تجلّيات مختلفة للبطولة، فالفاعل الاجتماعي "همّه أن يُصوّر النموذج البطولي للإنسان الفائق القوّة الذي يستطيع أن يُحقّق شيئا"[2].

كما نلاحظ من خلال تاريخ العدواني أنّ الأزمة ساهمت بقوّة في نحت شخصيّة الهادف، ففي أحد الليالي "لما نامت العيون" حاول رجل اسمه الحنّاشي قتل الهادف ليلا وهو في فراشه ولكنّ الذي قتل هو ابن الحنّاشي نفسه[3]. والرواية تبيّن لنا انتصار الهادف وفشل عمليّة اغتياله من خلال اعتراف الحنّاشي حيث قال "حسدّت الرجل فوقع مكري في حسدي"[4]. ومن خلال سيرورة الأولياء خلال العصر الوسيط نلاحظ أنّ "المحنة" ساهمت بكثافة في نحت مكانتهم الاجتماعية حيث يصبح "البطل خارقا لدرجة أنه يتحمّل ما لا يُطيقه الانسان، وهو بمفرده يجُابه قوى الشرّ والطغيان"[5]، وكثرة تعرّض الأولياء للمحن نتج عنه نشأة سرديات كاملة باسم "أدب المحن"[6].

وتأويلنا لهذه الحادثة أنّها مشحونة بذاكرة التاريخ الإسلامي خاصّة حينما أرادت قريش أن تقتل الرّسول ليلا وهو في فراشه ولكنّها فشلت في ذلك ونجح الرّسول في الهجرة، والقواسم المشتركة بين الروايتين هي عامل الزّمن أي في اللّيل، وعامل المكان وهو "السّرير" وهو مكان النّوم وعامل المفاجئة وأيضا استخدام السّيف في القتل، إلى جانب فشل محاولتي الاغتيال.

---

[1] صفاء ذياب، "دور العجيب في بناء الشخصيّة: سيرة الملك سيف ابن ذي يزن أنموذجا"، **الثقافة الشعبيّة**، العدد 37،2017، صص. 30- 47، ص.31

[2] هشام بنشاوي، "تجلّيات البطولة في الأدب الشعبي"، **الثقافة الشعبيّة**، العدد 36، 2017، صص. 50- 59، ص.50

[3] محمد بن محمد بن عمر العدواني، **تاريخ العدواني**، مصدر مذكور، ص. 214- 215

[4] نفس المصدر، ص. 215

[5] محمد حلمي عبد الوهاب، **وُلاّة وأولياء. السّلطة والمتصوّفة في إسلام العصر الوسيط**، الشبكة العربيّة للأبحاث والنشر، 2009، ص. 234

[6] نفس المرجع، نفس الصفحة

ارتبطت السرديّة التي أنتجت حول الهادف بالذاكرة الإسلامية بصفة واضحة وجليّة، فهو مثلا "يعرف خطّ الرمل" مثل المسلمين الأوائل أي "فراسة" تتبّع الآثار في الرمال. كما أنّنا نجد أثرا مهمّا للمدوّنة القرآنيّة في قصّة الهادف، فبعد أن تقابل الهادف بقائد القيروان الذي أطلق عليه الهادف اسم "أمير المؤمنين" ثمّ مع "حاكم تونس" نجد مجموعة من المصطلحات التي استخدمت في القرآن الكريم في سورة "يوسف" ووظّفت عند سرد حكاية الهادف مع قائد القيروان مثل:

قصة الهادف مع قائد القيروان وحاكم تونس	سورة يوسف
"أحضر بين يديه"	" وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ"(الآية 50)
"من لم يأتني بغير مال فلا حظّ له عندي"	"فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ"(الآية 60)"
"أنت تصلح لرئاسة الملوك"	"فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ"(الآية 45) "مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ"(الآية 21)
"أقبل عليه"	"قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم"(الآية71)
ربط مادّة الخبز" بالأزمة	"وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ "(الآية 36)
"رجع الهادف "	" ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ"(الآية81)
"فدخلوا عليه فكلّمهم وسألهم"	"وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ"(الآية58)
"قال له الهادف: ولّيني على الجزّارين والخبّازين"	"قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ"(الآية55)
"منزلة الأخ "	"يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ"(الآية7) "مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ"(الآية 76)

الجدول عدد 1: سيرة الهادف وسيرة النبيّ يوسف

كما نلاحظ أنّ مجموعة مهمّة من الأوصاف التي أطلقت على الهادف تَسمّى بها أيضا النبيّ يوسف مثل "حكيم زمانه"[1]، والنبيّ يوسف " آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا"(الآية22). ونسجّل أنّ الموروث القرآني أثّر على المنحى السردي بكلّ وضوح، أيضا رُبطت شخصيّة الهادف بتضاريس قصّة يوسف سواء على مستوى تشابه الأحداث، أو على مستوى تقارب المصطلحات المستخدمة، وفي بعض الأحيان يتم استخدام نفس المصطلح ونفس المشهدة مثل "دخل عليه" وغيرها. والمآل كان متشابها بين الشخصيّتين، فبعد أن أصبح النبيّ يوسف وزيرا عند ملك مصر، " وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي"(الآية54)، أصبح الهادف وزيرا لصاحب تونس[2].

كما نلاحظ أنّ النبيّ يوسف اهتمّ بالأمور الاقتصاديّة وخاصّة المعاش، مثل الهادف الذي اهتمّ بالأسواق حيث كان "أوّل من غرّم الأسواق وأجرى فيها العادة ثمّ جعل على كلّ سوق قائد..."[3]، كما طلب من صاحب تونس أن يجعله "صاحب خزنة ومفاتيح"[4]، وهذا يُحيلنا إلى الآية 55 من سورة يوسف " قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ". كما أن سيرة الهادف تُثبت حسن معرفته بمفاصل قوّة بلاد "افريقيّة"، حيث طالب الهادف من أصحاب باجة وصفاقس والقيروان وقفصة والكاف ونفزاوة من ضريبة ماديّة، خمسة آلاف درهم"[5]، وأمّا "خراج الجريد" فكان "تمرا"[6].

[1] محمد بن محمد بن عمر العدواني، **تاريخ العدواني**، مصدر مذكور، ص. 217

[2] محمد بن محمد بن عمر العدواني، **تاريخ العدواني**، مصدر مذكور، ص. 220

[3] نفس المصدر، ص. 220

[4] نفس المصدر، ص. 221

[5] نفس المصدر، ص. 221

[6] نفس المصدر، ص. 223

في هذا الإطار تبيّن الباحثة سميرة بشلاغم في مقال لها بعنوان "أهميّة المقدّس في الرموز المغاربيّة: قصّتا يوسف وإبراهيم عبر الرواية الشفويّة"،أنّ السّرد الشعبي أو القصّة في فضاء المغرب تأثّر كثيرا بقصّتي يوسف وإبراهيم خاصّة من ناحية التضحية التي أقدما عليها، وما أعقب ذلك من انتصار. في هذا الإطار تنتقل الرواية من الإطار الديني إلى إطار الرهانات الدنيويّة عبر مصفاة الرواية الشفويّة، وبالضرورة عبر الذاكرة. وهنا تبرز أهداف الفاعلين الاجتماعيّين عبر الإضافة أو الإنقاص وخاصّة المراوحة بين ثنائيّة الدالّ والمدلول. وأشارت الباحثة في آخر عملها إلى أنّ قدسيّة النصّ القرآني الذي استمدّت منه قصّة يوسف وإبراهيم لم يشكّل عائقا أمام إعادة كتابة القصّة نفسها عن طريق المخيّلة الشعبيّة[1]. كما بيّن الباحث عبد الكريم الصوّاف الحضور القويّ لشخصيّة النبيّ يوسف في عدد من القصص الشعبيّة المغربيّة خاصّة القصص المشحونة بالأمل والأحلام والأمل في "الخلاص" من واقع مأزوم[2].

ومع تواصل سرد سيرة الهادف نلاحظ تأثّرا بقصّة النبيّ موسى من خلال سورة "القصص"، فقد خرج الهادف من تونس غاضبا "حتّى يأتي وعد الله"[3]، والمثير أنه توجّه للقيروان مع عدم إغفال الهالة القدسيّة المحيطة بهذه المدينة، بالمقابل نجد أنّ موسى "خرج" من مصر "يترقّب" بعد أن قتل الرّجل[4]. أيضا الهادف طلب عند استضافته: "تزوّجوني إحدى بنات النّاس"[5] مثل موسى تزوّج إحدى بنات مدين لما استقرّ به الرحيل[6]. ولكن

[1]**Samira** Bechelaghem, « La part du sacrédans le signemagrébin : cas de la réécriture des récits de Youcef et du Sacrifice d'Abraham par la tradition orale », in, *Insaniyat / إنسانيات*, N43, 2009, pp. 55-68, p.66

[2]عبد الكريم الصواف، "المتخيّل في القصّة الشعبيّة اليهوديّة المغربيّة: قصّة يوسف عليه السلام نموذجا"، **الثقافة الشعبيّة**، البحرين، العدد 43، خريف 2018، صص.82-93

[3]محمد بن محمد بن عمر العدواني، **تاريخ العدواني**، مصدر مذكور، ص.228

[4]القرآن الكريم، سورة القصص، الآية 23

[5]محمد بن محمد بن عمر العدواني، **تاريخ العدواني**، مصدر مذكور، ص. 230

[6]القرآن الكريم، سورة القصص، الآية 27- 28

القاسم الأبرز المشترك هو تعيينه "على الجريد" بعد خيبته عند خروجه من تونس[1]، مثل موسى الذي استطاع الخروج مع بني إسرائيل بعد هروبه الأول من مصر، ولكن الهادف أُعطي عند تنصيبه في الجريد "حلّة مقوّمة بألفي درهم ذهبا" إلى جانب "الحرمة والاحترام"، مثلما أُعطي لموسى "العصى" و"اليد البيضاء"[2].

نلاحظ إذا من خلال كتاب العدواني تشابك سيرة الهادف بسيرة بعض الرسل والأنبياء، فقد كانت السير النبوية والرسولية وخاصة سيرة الرسول محمد مصدر إلهام مهم خلال الفترة قيد الدرس[3]. كما نلاحظ أنّ الذاكرة الروائيّة تتنقّل بسلاسة بين المقدّسين سواء كان الديني(سورة يوسف مثلا) أو الولائي، فالهادف لما ذهب إلى توزر قصد "سيدي أحمد الغوث" "ملك توزر ليساعده على الاستقرار فيها ويدعو له "بالبركة"[4]. ومن أجل ترسيخ التداخل بين المقدّسين تم توظيف معطيات الذاكرة بشكل مضاعف. فإلى جانب كون رواية الهادف هي معطيات ذاكرة بامتياز، نجد أن سيدي أحمد الغوث اعتمد على الذاكرة وخاصّة على الرؤيا والتنبّؤ لتشريع المكانة المركزية التي يريد فعل الذاكرة إضفاءها على الهادف[5]. هذه الشرعية الولائية التي استند عليها الهادف ورثها بعد أن توفّي أحمد الغوث، وأصبحت شخصية الهادف تمثّل الجانب الولائي والجانب الدنيوي السياسي مثل امتلاك الثورة السياسيّة خاصّة حكم "توزر وعملها" والثروة العقّاريّة أي "من المال والجدار"[6].

---

[1] محمد بن محمد بن عمر العدواني، **تاريخ العدواني**، مصدر مذكور، ص. 233 وما بعدها

[2] القرآن الكريم، سورة القصص، الآية 31- 32

[3] Mounira Chapoutot, « Biographie et autobiographie au temps d'Ibn Khaldoun : Entre autobiographie et biographie. Le tarif », In, *Autobiographie et histoire d'Ibn Khaldoun à nos jours*, Textes réunis et présentes par : Hédia Khadhar et Emna Beltaief, Cahiers du C.E.R.E.S, Séris littérature n11, Tunis, 2010, pp.1732

[4] محمد بن محمد بن عمر العدواني، **تاريخ العدواني**، مصدر مذكور، ص.235 وما بعدها

[5] نفس المصدر، ص. 237+ 238

[6] نفس المصدر، ص. 239

من هنا نتساءل، هل أرادت الذاكرة في هذا الإطار أن تؤسّس "لنظريّة النجاعة الشاملة للولاية أي التي تنفع النّاس في الدنيا والآخرة"؟[1]، الدنيا هنا هي ثروة الهادف، والآخرة هي البركة التي تلقّاها من سيدي أحمد الغوث وخاصّة من حسن رعايته لأبنائه.

من خلال هذه الخطاطة التي رسمتها الذاكرة حول شخصيّة الهادف يمكن أن نقول أنّ العوامل التي ساهمت في بناء تاريخ عائلة الهادف هي الهالة الولائيّة المدعّمة بالثروة الماديّة والعقاريّة[2]، إلى جانبالجاه السياسي الذي راكمته العائلة خاصة من خلال شخص الهادف لسنوات طويلة. ولكن نلاحظ أنّ مفهوم الولاية التي قدّمتها الذاكرة لم تكنتعني شخص الهادف، حيث أنّ السرد لم يُظهر الهادف في عباءة الوليّ الكلاسيكي المتّسم بـ"العصمة" و"الكرامة" و"سلطة الشفاعة"[3]، ولكن الهادف ارتكز على هذه العوامل من ناحيتين: من ناحية اعتماده على أولياء يتميزون بهذه المميزات الثلاثة مثل سيدي أحمد الغوث، ومن ناحية أخرى إضفاء هؤلاء الأولياء "بركة" على الهادف وحنكته السياسيّة سمح له بالتمتّع ببعض الكرامات الدنيويّة مثل نجاته من الاغتيال والمؤامرات عدّة مرّات. من زاوية نظر أخرى فالثروة الماديّة التي تمتّع بها الهادف سمحت له بأن يلعب دور "الشفاعة" خاصّة عند تقديمه الأكل للجوعى في فترة الأزمات، هذه الثروة الماديّة كان لها دورا مهمّا في بناء المكانة الاجتماعيّة للفرد خلال الفترة المدروسة[4].

ومن خلال نموذج تفسيري آخر لصناعة مكانة الشخص اجتماعيّا من خلال الذاكرة القرآنيّة ولكن هذه المرّة من خلال التحقير، نجد أنّ شخصيّة ابن حفصون وهو الثائر المعروف في الفترة الأمويّة أصبح من خلال الأسطوغرافيا الفرنسيّة "قاطع طريق

[1] نلّلي سلامة العامري، مرجع مذكور سابقا، ص. 312

[2] من ممتلكات الهادف نجد "غدي عمود وبركة النجار وأرض الصافية والسانية وجرّ بني امزاب ومغسل الصوف". العدواني، ص. 240- 241

[3] محمد حلمي عبد الوهاب، مرجع مذكور سابقا، ص. 94- 112

[4] *Revue* des *mondes musulmans et de laMéditerranée*, « Biens communs, patrimoines collectifs et gestion communautaire dans les sociétés musulmanes »,Sous la direction de: Sylvie Denoix, Edisud, N79- 80, 1996.

Bandit خاصّة من خلالجوزي أنطونيو كونديJosé Antonio Conde (1768- 1820) الذي شبّه ابن حفصون بالمقاومين المصريّين للوجود النابليوني في مصر منذ 1798. والشخصيّة الثانية هي رينهارت دوزيReinhart Dozy (1821- 1881) الذي جعل من شخصيّة ابن حفصون المذكور من"قطّاع الطرق الأندلسيّين" الذين انتشرت حكاياتهم في الروايات الشعبيّة الفرنسيّة خلال القرن التاسع عشر[1]. نلاحظ من خلال هذا النموذج التفسيري أنّ توظيف الذاكرة الانتقائيّة والتحريفيّة هدفه الأساسي سياسي، بامتياز ونصل هنا إلى مرحلة التبرير، حيث أن المقاومة المصريّة لنابليون كانت مجرّد قطع طريق.

المثير للاهتمام من خلال النسج السردي لمكانة الهادف هيعدم تطابق مرتكزاتها مع روح العصر الذي عاش فيه. وقد بيّن الباحث الهواري التواتي أنّ شخصيّة ابن أبي محلّى(ولد 1559) ارتكزت أساسا على إرث عائلي علمي وخاصّة العلم الشرعي، وعلى مفهوم البركة، ولكنه مع تعمّقه في سياحته الولائيّة بدأ يقترب شيئا فشيئا من بعض الصفات النبويّة حيث بدأت تظهر بعض الرؤى وهو في "خلوة" إلى أن كلّف في أحد رؤاه بالجهاد في سبيل الله[2].

والذي يهمّنا من خلال سيرة ابن أبي محلّة هو توظيف المدوّنة القرآنيّة والسير النبويّة من خلال العزلة في "الغار" أو "الرؤية" وغيرها، هذا يذكّرنا بالأحداث التي عاشها الرسول(ص) في بداية الدعوة من خلال العزلة في غار حراء، أو رؤيته لجبريل وتكليفه بالدعوة، بل إنّ التشابه في الروايتين وصل إلى حدوده القصوى من خلال بعض التفاصيل،

[1]**Gabriel** Martinez-Gros, « *Ibn Ḥafsûn ou la construction d'un bandit populaire », in, Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, N129, 2011, p.139- 152*

[2] Houari Touati, « L'Arbre du Prophète. Prophétisme, ancestralité et politique au Maghreb », *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*, N 91-94, p.137- 156

فمثلما رأى الرسول جبريل في أفق السّماء، أيضا ابن أبي محلّة رأى المبشّر بالجهاد حلّ بنوره في أفق السّماء وهو جالس في خلوته.[1]

يمكن التأكيد على التشابه بين شخصيّة الهادف وابن أبي محلّةفي بعض الجوانب، واختلافهم في جوانب أخرى. من خلال توظيف الفعل التذكّري في السرديّتين نلاحظ أنّ شخصيّة العدواني أكثر براغماتيّة واعتمدت في بناء مكانتها الاجتماعيّة على أسس ماديّة (ماليّة وعقاريّة) وسياسيّة (علاقات مع السلطة) إلى جانب توظيف المعجم القرآني وخاصّة قصص الأنبياء للإيحاء بالشخصيّة الفريدة للهادف المائلة إلى القداسة. أمّا ابن أبي محلّة فقد اعتمد أساسا على معطيات ولائيّة ترتكز على مفهوم البركة والتزكية و"الكشف" والترقّي في سلّم الصلاح، وفي خضمّ هذا الترقّي تمّ توظيف المدوّنة القرآنيّة من خلال علاقة الرسول بجبريل لحظة التكليف.

يمكن القول، خاصّة في ظلّ أن سرديّة كلّ من العدواني وابن أبي محلّة كتبتا في نفس الفترة التاريخيّة، حيث أنّ المناخ الفكري والتمثّلي للفاعلين الاجتماعيّين خلال الفترة قيد الدرس لهأثّر الفعل التذكّري نفسه وربط تشكيل المكانة الإجتماعيّة للفرد بتشبيهها ولو مجازيّا أو إيحاءً بسيرورة النبوّة بداية من الصعوبة مرورا بالتكليف وصولا إلى الفرج والنصر، أو بعبارة العدواني "حتّى يأتي وعد الله"[2].

نلاحظ أنّ سيرورة شخصيّة الهادف ترتكز أساسا على آليّة العود الأبدي، أي سيرورة حياتيّة دائريّة Cyclique، وهذا النمط من تمثّل الوجود يقدّس "سلطان البدايات"، وأنّ حياة الفاعل الاجتماعي الذي تستهدف الذاكرة بناء مكانته الاجتماعيّة أساسها بداية المحاولة وسلك طريق النجاح. بيّنت الباحثة ميريام ريفولت دالون Myriam Revolt Dalon في كتابها عن "سلطان البدايات: بحث في السلطة" أنّ "للسلطة علاقة جوهريّة بالزمن. فهي تُمارس أصلا في عالم بُنيته أصلا زمانيّة...إنّ الزمن هم

[1]Ibid, p. 147

[2]محمد بن محمد بن عمر العدواني، **تاريخ العدواني**، مصدر مذكور، ص.228

رحم السلطة كما أنّ المكان هو رحم السلطان"[1]. وهذا ما نلاحظه على مستوى أغلب "السرديّات الشعبية" حيث أنّ "التمثّلات الجماعيّة للماضي والأحداث والأشياء عبر الاستناد إلى الأصول والبدايات تتحقّق ضمن إطار سردي يتداخل فيه التاريخ بالتخيّل...أين يتحوّل التأليف السردي إلى تأليف للهويّة الفرديّة والجماعيّة"[2]، وفي هذا الإطار تتموضع الذاكرة من خلال انتقاءهاوتحريفها وتبريرها لتحقيق رهانات الفاعلين الاجتماعيّين.

من خلال هذا الطرح نلاحظ أنّ الرواياتالتي نُسجت حول شخصيّة الهادف هي نسيج زمني بامتياز حيث يتمّ القفز بين الأحداث وبين الشخصيّات التاريخيّة وبليونة من دون الاهتمام بالسيرورة الزمنيّة الصارمة والواقعيّة. في هذا الإطار وظّف الزمن لبناء سلطة هذه الشخصيّة، أمّا المكان فقد بيّنت أحداث الرواية أنّه ساهم في بناء سلطان الهادف خاصّة من خلال الخطاطة الجغرافيّة التي رسمها من خلال تجوّله بين شمال البلاد وجنوبها متّبعا الخريطة الإنتاجيّة (حبوب، زيتون، تمور) والضرائبيّة والولائيّة للبلاد التونسيّة خلال الفترة المدروسة. إذن المكان من خلال السرد كان أرسخ من الزمان، ولكن في الحالتين تمّ بناء سلطة الهادف عن طريق الزمن وبناء سلطانه عن طريق المكان.

خاتمة:

نلاحظ من خلال علاقة الذاكرة بسيرة شخصيّة الهادفأنّ شرعنة وجود الفاعل الاجتماعي ومن ثمّة العائلة يتمّعبرمجموعة من الأسس، مثل الشرف العائلي والرأسمال الرمزي سواء عن طريق التديّن الرسمي مثل الفقيه أو الإمام أو المدرس، أو عن طريق التديّن "الشعبي" مثل الولائية والطرق الصوفية وعائلات الزوايا، مع عدم إغفال إمكانية ارتكاز العائلة على النسب الشريف. والرأسمال الرمزي الذي تكتسبه العائلة عادة بسبب تراكمات تاريخيّة يمكن أن يُربحها رأسمال مادي خاصّة بعد التحالف مع السلطة الحاكمة.

[1] ميريام ريفولت دالون، **سلطان البدايات: بحث في السلطة**، ترجمة: سايد مطر، المنظّمة العربيّة للترجمة، بيروت، 2012، ص.21

[2] عماد بن صولة، "الأصول والبدايات في السرديّات الشفويّة"، **الثقافة الشعبيّة**، السنة الخامسة، العدد 16، 2012، صص.40- 53، ص.46- 47

وتوظيف الذّاكرة ضمن رهانات الفاعلين الاجتماعيّين يُحيلنا إلى معالجة بول ريكور للذاكرة، حيث أشار إلى "إساءات استعمال الذاكرة"، وأعطى أمثلة لمجموعة من الذواكر "الذّاكرة المتلاعب بها" والذاكرة المريضة و"الذاكرة المأمورة بشكل سيّئ" و"الذاكرة المعاقة" و"الذاكرة السعيدة"[1]. وقد لاحظنا من خلال البحث الدور المهمّ للذاكرة في عمليّة حياكة المكانة الاجتماعيّة للأفراد والعائلات، حيث وُظّف الفعل السردي المنسلّ من الذاكرة لإيجاد شرعيّة لنفوذ عائلة الهادف في مدينة توزر. ولكن توظيف الذاكرة يحتاج لأسس يُعتمد عليها، وعائلة الهادف تستند أساسا على ثروة مادية متأتية من التجارة خاصة القوافليّة بحكم مكانة منطقة الجريد على مستوى خريطة الطرقات التجارية، إلى جانب امتيازات جبائية تمتّعت بها العائلة، وكذلك تملّك العقارات وخاصة النخيل. هذه العوامل المادية التي أسّست للنفود اعتمدت إلى جانب ذلك على رأسمال معنوي يرتكز على المؤهلات الشخصية للهادف والتزكية والبركة التي استمدّها من أولياء توزر. ولا نستطيع أن نغفل الظرفيات الداخلية والخارجية التي ساهمت في ترسيخ هذه السردية حول عائلة الهادف.

أمّا رأس المال الرمزي الذي اعتمدت عليه عائلة الهادف فيتمثّل في مجموعة من الخصال التي ميّزت شخصيّة الهادف نفسه، ومن هنا تبرز أهميّة الذاكرة في بناء الواقع المجتمعي خاصّة من ناحية دورها في انتقاء الأخبار التي يحتاجها الفاعلون الاجتماعيّون. هذه الخصال هي المؤهلات الشخصية للهادف، والبركة(Bénédiction) المستمدّة من الوليّ، والمعاناة ثمّ الخلاص. هذه العوامل وخاصة المؤهلات الشخصية تم ترسيخها على مستوى الذاكرة بالاستناد إلى السرد بغية تشريع سيطرة عائلة الهادف مدة طويلة على منطقة توزر. إذن الهادف وهو مؤسّس السلالة أُضْفيت عليه ميزات كاريزمية تستند إلى كفاءته الشخصية قبل عاملي البركة والمعاناة، هذه الشخصية واجهت بمهاراتها العوائق السياسية وغيرة وحسد بعض الفاعلين الاجتماعيين. ولذلك اندمجت في شخصية الهادف المهارة الشخصية والثراء الملفت والتزكية الولائية بتوزر. هذه الأسس التي راهنت عليها الرواية

[1] بول ريكور، **الذاكرة، التاريخ، النسيان**، ترجمة وتقديم وتعليق: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتّحدة، 2009

وُظِّفت على مستوى الذاكرة لترسيخ تواجد هذه العائلة في مدينة توزر ونقض كل نُلاحظ تواجد علاقة تشابكية تربط بين ممارسة الرواية والسّرد والزمن و"الفعل الاجتماعي"[1]، فالهادف أو بقيّة الفاعلين الاجتماعيّين سواء في زمن الهادف، أو عند رواية الأحداث بأثر رجعيّ بالاعتماد أساسا على الذاكرة،وظّفوا المِحْكِي كآليّة من آليّات فرض السّلطة وحبك سرديّة ناصعة، حيث يُعتبر الخطاب منتجا لسلطة، ف"الخطاب باعتباره ممارسة اجتماعيّة" ينتج تصنيفات وصور نمطيّة ويُكرّس تراتبيّة اجتماعيّة[2].

كما نسجّل توظيف الذاكرة للمعجم القرآني خاصّة قصص الأنبياء عند سرد سيرة العدواني حيث يتشابك المقدّس بالسيرة ويُنسج الشفوي إلى المدوّن[3]. ومن خلال الدراسة المقارنة لاحظنا أنّ هذه الممارسة كانت متلائمة مع المناخ الثقافي للفاعلين الاجتماعيّين خلال الفترة الحديثة في بلاد المغارب عامّة خاصّة وأنّ الباثّ يعتمد عند روايته للسيرة على مجموعة من الرموز والكلمات المفاتيح التي يفهمها المتلقّي وهو المستمع، وتكون مشتركة بينه وبين المستمع، وهذه الرموز المفاتيح تكون ابنة عصرها خاصّة على مستوى دلالاتها وتأويلاتها. والسير والقصص النبويّة وظّفت في هذا المناخ الثقافي من أجل بناء المكانة الاجتماعيّة للفرد وللعائلة واتّخذت كنموذج يعتمد غالبا على التلميح لا على التصريح.

قائمة المصادر والمراجع:

-أندرسن، بندكت، **الجماعات المتخيّلة. تأمّلات في أصل القوميّة وانتشارها**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ترجمة: ثائر ديب، 2014.

[1] رجب شانتورك، **البنية الاجتماعية السردية: تشريح شبكة رواية الحديث النبوي (610-1505 م)**، ترجمة: صابر الحباشة، جسور للترجمة والنشر، بيروت، 2018، ص.309

[2] نورمان فيركلف، **اللّغة والسّلطة**، ترجمة: محمد عناني، المركز القومي للترجمة، مصر، 2016، ص.35 وما بعدها

[3] محمود رمضان الجبور، سيرة بني هلال: بين الشفاهيّة والتدوين"، **الثقافة الشعبية**، البحرين، العدد 43، خريف 2018، صص.40-47، ص.45-46

-أيّوب، عبد الرحمان، "الذاكرة والتراث الثقافي اللامادي"، **الثقافة الشعبيّة**، البحرين، العدد 43، خريف 2018، ص.14-21

- بن صولة، عماد، "الأصول والبدايات في السرديّات الشفويّة"، **الثقافة الشعبيّة**، السنة الخامسة، العدد 16، 2012، صص.40- 53.

- بن قادة، صادق، «الذاكرة المكتوبة والتاريخ: أضواء جديدة حول شخصية مسلم بن عبد القادر الوهراني أديب ومؤرخ بايات وهران (القرن 13هـ/19م)» / **Insaniyat** , **إنسانيات**، العدد 3، 1998، ص.35- 45

- بنشاوي، هشام، "تجلّيات البطولة في الأدب الشعبي"، **الثقافة الشعبيّة**، العدد 36، 2017، صص. 50- 59.

- بورديو، بيار، **عن الدولة. دروس في الكوليج دو فرانس**، ترجمة: نصير مروة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2016.

- تايلور، تشارلز، **المتخيّلات الاجتماعية الحديثة**، ترجمة: الحارث النبهان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2015.

- التليلي، مصطفى، "احتكار النفوذ المحلي وآليات المحافظة عليه من خلال مسيرة عائلة السماوي بمدينة قفصة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر"، ضمن: **مسار مؤرخ وتجربة تأريخية. أعمال مهداة إلى محمد الهادي الشريف**، مركز النشر الجامعي/ دراسات مغاربية، 2008، ص.95- 104

- التليلي، مصطفى، **قفصة والقرى الواحية المجاورة: حول الحياة الجماعوية من بداية القرن 18 إلى 1881**، نشر وتوزيع جمعية صيانة مدينة قفصة، 2009.

- تونيز، فرديناند، **تونيز. الجماعة والمجتمع المدني**، ترجمة: نائل حريري، تحرير: جوزيه هاريس، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017.

- الجبور، محمود رمضان، "سيرة بني هلال: بين الشفاهيّة والتدوين"،**الثقافة الشعبية**، البحرين، العدد 43، خريف 2018، صص.40-47

- دالون، ميريام ريفولت، **سلطان البدايات: بحث في السلطة**، ترجمة: سايد مطر، المنظّمة العربيّة للترجمة، بيروت، 2012.

- ذياب، صفاء، "دور العجيب في بناء الشخصيّة: سيرة الملك سيف ابن ذي يزن أنموذجا"، **الثقافة الشعبيّة**، العدد 37،2017، صص. 30- 47.
- ريكور، بول، **الذاكرة، التاريخ، النسيان**، ترجمة وتقديم وتعليق: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتّحدة، 2009.
- شانتورك، رجب، **البنية الاجتماعية السردية: تشريح شبكة رواية الحديث النبوي (610– 1505 م)**، ترجمة: صابر الحباشة، جسور للترجمة والنشر، بيروت، 2018.
- الصواف، عبد الكريم، "المتخيّل في القصّة الشعبيّة اليهوديّة المغربيّة: قصّة يوسف عليه السلام نموذجا"،**الثقافة الشعبيّة**،البحرين،العدد 43،خريف 2018، صص.82-93
-الطاهري، عبد العزيز، "الشاهد والمؤرخ في المغرب: صراع أم تكامل؟"، **أسطور**، العدد 6، جوان 2017، صص. 100- 117، ص. 112
- العامري، نلّلي سلامة، **الوَلاية والمجتمع. مساهمة في التاريخ الاجتماعي والديني في لإفريقيّة في العهد الحفصي**، دار الفرابي/ كليّة الآداب والفنون والانسانيّات بمنّوبة، تونس، الطبعة الثانية، 2006.
- عبد الوهاب، محمد حلمي، **وُلاّة وأولياء. السّلطة والمتصوّفة في إسلام العصر الوسيط**، الشبكة العربيّة للأبحاث والنشر، 2009.
- العدواني،محمد بن محمد بن عمر، **تاريخ العدواني**، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، 1996.
- عيسى، لطفي، "ذاكرة المخزن وتحدّي التاريخ المقارن"، **الكرّاسات التونسية**، عدد 212-213، 2011، صص.45-64
- عيسى، لطفي، **أخبار المناقب في المعجزة والكرامة والتاريخ**، سراس للنشر. تونس، 1993.
- غانم، محمد، «ظاهرة الزلزال في الأسطوغرافيا الجزائرية التقليدية (بين الذاكرة والتاريخ) » / *Insaniyat* ,*إنسانيات*، العدد 3، 1998، ص.47- 67
- فيركلف، نورمان، **اللّغة والسّلطة**، ترجمة: محمد عناني، المركز القومي للترجمة، مصر، 2016.
- القفصي، لمنتصر بن المرابط بن أبي لحية، **نور الأرماش في مناقب القشاش**، دراسة وتحقيق: لطفي عيسى/ حسين بوجرّة، المكتبة العتيقة، تونس، 1998.

-كوثراني، وجيه، "التاريخ والذاكرة والكتابة التاريخية. دراسة نماذج: سايكس بيكو، الخلافة، ذاكرات طوائف لبنان"، **أسطور**، العدد 4، جوان 2016، صص.13- 24، ص.22

- لوغوف، جاك، **التّاريخ والذاكرة**، ترجمة: جمال شحيّد، المركز للأبحاث ودراسة السياسات، 2017.

- المكني، عبد الواحد، **الأصل والفصل في تاريخ عائلات صفاقس**، دار محمد علي للنشر، تونس/كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، مخبر البحوث والدراسات المقارنة والمتداخلة، 2016.

- هويدي، سلوى، **أعوان الدولة بالإيالة التونسية: الأفراد، المجموعات، شبكات العلاقات، 1735–1814**، كليّة العلوم الانسانيّة والاجتماعيّة بتونس، 2014.

- الوسلاتي، نورة، "المرويّة القبليّة وتمثّلات مجال البداوة: طرود في كتاب العدواني"، ضمن:

- *Perception de l'espace au Maghreb et ailleurs*, Travaux réunis et présentés par : Lotfi Aissa, F.S.H.S. Tunis, 2011, pp.193-222, p.220

- Amri, Nelly « Le corps du saint dans l'hagiographie du Maghreb médiéval », *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée* [En ligne], 113-114 | novembre 2006, mis en ligne le 10 novembre 2006, consulté le 02 décembre 2017

- BARGAOUI, Sami« La question des origines dans les historiographies tunisienne et marocaine de l'époque moderne », in, *Savoirs historiques au Maghreb. Constructions et usages*, Coordination: Sami Bargaoui- Hssan Remaoun, CRASC, CERES, 2066, pp.49- 59.

- Bechelaghem, Samira « La part du sacrédans le signemagrébin : cas de la réécriture des récits de Youcef et du Sacrifice d'Abraham par la tradition orale », in, *Insaniyat / إنسانيات*, N43, 2009, pp. 55-68.

- Bourmaud, Philippe « Des notables locaux et nationaux : les familles AbūĠazālah et Khalidi et la profession médicale, de l'époque ottomane au mandat britannique en Palestine », *Cahiers de la Méditerranée*, 82 | 2011, pp.267-296, p.17

- Chapoutot, Mounira « Biographie et autobiographie au temps d'Ibn Khaldoun : Entre autobiographie et biographie. Le tarif »,

In, *Autobiographie et histoire d'Ibn Khaldoun à nos jours*, Textes réunis et présentes par : Hédia Khadhar et Emna Beltaief, Cahiers du C.E.R.E.S, Séris littérature n11, Tunis, 2010, pp.17-32

- El Korso, Malika « La mémoire des militantes de la Guerre de libération nationale », *Insaniyat / إنسانيات*, N3, 1998, p.25-51.

- Grangaud, Isabelle « Le titre de Sayyid ou Sî dans la documentation constantinoise d'époque moderne : un marqueur identitaire en évolution », *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée* [En ligne], 127 | juillet 2010

- Hénia, Abdelhamid « Mémoires d'origine et gestion communautaire de l'intégration en Tunisie (17e-19e siècles) », In, *EtnoAntropologia*, Vol 3, N° 1, 2015 : (http://www.rivisteclueb.it/riviste/index.php/etnoantropologia/article/view/181/275)

- Hénia, Abdelhamid « Origine et évolution d'un patrimoine familiale tunisien (17e- 19e siècle) », *IBLA*, Tunis, N 155, 1985, pp.3-17, p.15-16 (Deuxième partie).

- Martinez-Gros, Gabriel « *Ibn Ḥafsûn ou la construction d'un bandit populaire », in, Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée, N129, 2011, p.139- 152*

- Pierunek, Eve Feuillebois « La maîtrise du corps d'après les manuels de soufisme (10e-14e siècles) », *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée* [En ligne], 113-114 | novembre 2006, mis en ligne le 10 novembre 2006, consulté le 02 décembre 2017(https://journals.openedition.org/remmm/2969)

- Soufi, Fouad « Histoire et mémoire: l'historiographie coloniale », *Insaniyat / إنسانيات*, N 3, 1998, p.53-69.

- Temime Blili, Leila.*Sous le toit de l'Empire : La Régence de Tunis (1535-1666). Genèse d'une province ottomane au Maghreb*, Editions Script : Collection Histoire, Tunis, 2011.

- Touati, Houari « L'Arbre du Prophète. Prophétisme, ancestralité et politique au Maghreb », *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*, N 91-94, p.137- 156.